من تراب الطريق (٤٦٩) الدين والحرية(*)

فى كتابه الضافى : معالم التقريب ، أورد أستاذنا المفكر الجليل محمد عبدالله محمد ، أنه لا شك أن البلدان الإسلامية بعامة ، قد نقلت فى أحكام دساتيرها وقوانينها الوضعية ـ عن الدساتير والقوانين الأوربية ، لأغراض عملية روعى فيها ظروف كل بلد وحاجته إلى الأخذ بأسباب الحضارة والمشاركة فى المجرى الرئيسى النافع للحضارة ، ولكن الذى لا مراء فيه أيضا أنها لم تنتقل فيما أخذته .. عن التيارات الإلحادية التى طفت إلى الفكر الأوروبى ، ولم تستأنس بما استأنست به من أحكام لكى تستغنى بها عن الدين . بل ترى فى القانون المدنى المصرى الذى قام فيه الفقيه السنهورى بالدور الأكبر ـ ترى الشريعة الإسلامية مصدرا من المصادر التى تكمل ما عساه لا تغطيه النصوص ، فلا وجود لفكرة مفارقة الدين فى الاستعانة بالصيغ الغربية لا فى التشريعات ولا فى بعض أساليب الحياة . ولا ضير على المسلم ، أو المسيحى ، فى أن يأخذ من أسباب الحضارة بما يشاء مادام لا يتعارض مع قيم ومبادئ دينه ، ولقد طبقت القوانين الوضعية واستخدمناها وألفنا استخدامها لعشرات السنين مشرعين ومنفذين وقضاة ومحامين ومتقاضين ومتعاملين ، دون أن تأخذ شيئا من الدين .

إن الله تعالى هو وحْدة الموحدين الحقيقية ، وهو وجودهم الحى ..هو وحْدَه سبحانه وتعالى الذى شد ويشد إليه مئات الملايين من الضعفاء

(*) المال ١٩/٧/٢٠١٠ .

والفقراء ، فلم ولن تبتلعهم قوى هذا العصر الخطرة الشريرة . وهذا الشعور العميق الغائر فى نفس المؤمن ، هو الحبل الذى يقيه ويتماسك به ، وقتل هذا الشعور هو الذى يقتل ويجافى الدين .

والحريات المدنية والسياسية والاقتصادية ، وما يتبعها من حرية الرأى والفكر والاعتقاد ، لا يلغى ولا يصادر الدين ، ولا يخل بالتدين . فالمفهوم السياسى للحريات أنها ضمانات من صنع الناس ، شرعوها وفرضوها بمجتمعاتهم لحماية أنفسهم من أى تجاوز أو تسلط أو عسف من الحكام أو غيرهم . وهذه الحريات الوضعية كلها خارجية تتغيا إبعاد أنواع من العوائق والعوارض والقيود الخارجية ، ولا شأن لها بداخل الإنسان ، ثم إن هذه الحريات محكومة بفكرة النظام العام لا تتعداه ، والنظام العام هو محصلة القيم التى تعارف عليها المجتمع وفى مقدمتها قيم الأديان .. فليست الحريات حربًا على الدين ولا انتقاصا منه أو مصادرة له أو للتدين .

بل إن الذى يتغلغل إلى تصور الإسلام للمعنى الكلى الذى تشير إليه كلمة الحرية فى العصر الحديث ، يجد أنه أكثر فهما وعمقا واعتناقا لقيمة هذا المعنى ومكانته .. ذلك أن مشكلة الحرية ليست عند التأمل مشكلة سياسية أو اقتصادية بقدر ما هى مشكلة عاطفية عقلية ، فهى لا توجد إذا كنا جميعا ـ حاكمين ومحكومين ـ متفقين على الصواب والخطأ ، وفى الرغبات وفهمها وضرورة الاختيار بينها وتنظيم كيفية إشباعها ، ووفقا لمعيار عادل ثابت للكرامة الشخصية لا يتأثر بقوة الفرد وضعفه ، أو بقدر أهميته أو مصلحته . ففكرة الكرامة متداخلة تداخلا عميقا فى ميدان المشاعر والعواطف أكثر منها فى ميدان المعقولات والمصالح ، فالحرية جذورها فى منطقة الشعور ، وفى مجال

القيم التى يزن بها الإنسان نفسه فى عينه وفى عيون الآخرين متشبثا بفكرة المساواة .والواقع أن المستوى الكريم للحياة تصور منتزع من عناصر مادية يحمل معنى التميز . فالحياة الكريمة بغض النظر عن الشعارات والنظريات ـ هى فى عصرنا حياة مادية مادام المال هو القيمة الاجتماعية الرئيسية التى يتركز عليها اهتمام الناس ، وما دام وضع الإنسان الاقتصادي فى المجتمع هو الذى يربط بين نصيبه الفعلى من احترام نفسه واحترام المجتمع له . وإشكالية أخرى ، أن صار صعبا على الإنسان العادى فى زماننا أن يشعر بالأهمية أو الإنصاف وهو منفرد وبعيد عن التكتل ، فى حزب أو نقابة أو ما شابه .

إذن فالحرية التى يحتاجها العصر ، ويفلتها من يده باستمرار، هى التحرير من استبداد واستعباد رغباتنا ومطامعنا التى تدعو القوى لإهمال الضعيف ، والحاكم للاستقواء بسلطته على المحكوم ، والطامعين للتغول بمطامعهم أو استبدادهم على البسطاء . وما من ظالم إلاَّ وأداته إنسان تستعبده هو الآخر مطامعه وشهواته ، ولا يمكن لأى استبداد أو طغيان اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى أن يوجد .. إلاَّ إذا كان الناس قد فقدوا حريتهم الداخلية !

والشعور بالحرية الداخلية ، هذا الشعور الملىء بالوقار والطمأنينة ، منبعه وواحته الدين . ونرى بهذا المعنى الكلى كيف أن منظومة دين كالإسلام ، توفر عناصر وضوابط وروح ومعنى الحرية . فالمسلم الصادق يكون حرا وهو منسجون ، وحرا وهو رقيق ، وحرا وهو فقير .. وهكذا رأينا بلال وسلمان الفارسى وصهيب الرومى وغيرهم ، قلوبهم الملآنة بالحرية هى التى تجاوزوا بها الفقر وتحرروا من نير العبودية وآمنوا بقلوب معمورة بحرية أعمق وأشد من حرية الكثيرين من الطلقاء والسادة والأغنياء وذوى الجاه والزعماء .

هذه الحرية الداخلية التى يطلقها الإسلام فى قلب المسلم الصادق ، ليست السلبية أو البلادة أو عدم المبالاة ، وليست فى الرعونة ولا الحماقة والتجبر على الناس أو العصف بحيواتهم وبالعمران ، وهى بالبداهة ليست حرية ترك الدين أو الانقلاب عليه ، وإنما هى أخوة فى الله ، أبدية فى الدنيا والآخرة ، تجمع المؤمنين بقلوب عامرة بالهداية والإيمان الذى يربط عليها بحبل متين تستقيم به الحياة بين جميع الأحياء .

*****